

حين طغى الماء جاءت النجاة طوفان نوح تذكرة بقدرة الله ورحمته



الأربعاء 9 سبتمبر 2026 05:00 م

تجسّد قصة طوفان نوح عليه السلام مشهدًا عظيمًا من مشاهد القدرة الإلهية؛ فالماء الذي جعله الله سببًا للحياة أصبح بأمره سببًا لهلاك المكذبين، والسفينة التي جرت وسط الطوفان صارت مظهرًا لرحمته بالمؤمنين وبين الغرق والنجاة، تبقى القصة دعوة إلى الإيمان، وتحذيرًا من عاقبة الإعراض، وتذكيرًا بأن النجاة فضل من الله يستوجب الشكر والطاعة

وتضع آيتان من سورة الحاقة الإنسان أمام هذه العبرة الباقية، فيقول الله تعالى: (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۖ لَنُكْفِّرَنَّ وَلَنُعْذِّبَنَّ أَتُنْذِرُونَ ۚ وَتُعْذِرُونَ ۚ وَإِنَّا لَنَذِرُكُمْ أَتُنْذِرُونَ ۚ) [الحاقة: 11-12]. فالخطاب يذكّر البشر بنجاة أصولهم، ويوجههم إلى استقبال أخبار الوحي بقلوب متدبرة وأذان تحفظ الموعظة وتستجيب لها

الطوفان شاهد على القدرة

يرسم قوله تعالى: (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ) مشهد الماء وقد تجاوز حدّه، وأحاط بالمكذبين الذين أعرضوا عن دعوة نبيهم وفي هذا المشهد تتجلى قدرة الله التي لا يعجزها شيء، ويسقط اغترار الإنسان بقوته حين يظن أنه يستطيع الاستغناء عن ربه أو الإفلات من حسابه

ولم تكن دعوة نوح عليه السلام إلا دعوة إلى توحيد الله وعبادته، غير أن قومه قابلوا الهداية بالتكذيب والإصرار على الضلال فجاء الطوفان شاهدًا على عاقبة الإعراض، وبقي خبره موعظة للأجيال، حتى لا تتكرر الغفلة نفسها في قلوب من يقرؤون القصة ويسمعون آياتها

وتوقظ هذه العبرة في المؤمن خوفًا يدفعه إلى التوبة، ورجاء يحمله على الإقبال على الله؛ فربه الذي أهلك المكذبين هو الذي حفظ المؤمنين، وجمع لهم بين النجاة من العذاب وامتداد أثر الإيمان فيمن جاء بعدهم

الجارية مظهر للرحمة

و«الجارية» في الآية هي سفينة نوح عليه السلام، التي جرت فوق ماء الطوفان بمن حملهم الله فيها وبين أمواج الهلاك كانت السفينة سببًا للنجاة بإذن ربه، لتبقى صورة حاضرة لمعنى الحفظ الإلهي وسط الشدائد

وفي قوله تعالى: (حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ) امتنان على المخاطبين بنجاة أصولهم؛ فحفظ الآباء كان سببًا في وجود الأبناء، والنعمة التي نالها السابقون امتد أثرها إلى اللاحقين وهكذا يتعلم الإنسان أن نعم الله عليه أوسع مما يشهده في حياته الخاصة

ومن مقتضيات شكر هذه النعمة أن يعرف العبد فضل ربه، وأن يأخذ بالأسباب مع صدق التوكل عليه؛ فقد كانت السفينة سببًا، وكانت النجاة بتقدير الله ورحمته، فلا يستغني المؤمن عن العمل، ولا يتعلق قلبه بالأسباب تعلًا ينسيه مسببها سبحانه

ذرية حفظها الله

ويقول الله تعالى عن نوح عليه السلام: (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) [الصافات: 77]. وتكشف الآية عن نعمة أخرى أكرم الله بها نبيه، إذ أبقى ذريته، وجعل لبقائها أثرًا ممتدًا بعد انقضاء الطوفان

وينقل النص عن الإمام الطبري تفسيرًا مؤداه أن المؤمنين الذين ركبوا مع نوح من غير ذريته لم يبق لهم عقب، وأن الباقين من البشر من ذريته عليه السلام وعلى هذا التفسير يتضح معنى تذكير الأجيال اللاحقة بحمل أصولها في السفينة، وإن لم تشهد الواقعة بنفسها [1] ويدعو هذا المعنى إلى التواضع؛ فالإنسان لم يصنع لنفسه بداية وجوده، ولم يدفع الأخطار التي سبقت مولده، وإنما جاء إلى الدنيا بعد اللطاف ونعم لا يحيط بها علماً [2] فإذا استحضر ذلك، كان أجدر به أن يشكر ربه، ويحسن عبادته، ويترك الكبر والاغترار [3]

أذن تسمع وقلب يستجيب

لا يقف المقصود من القصة عند معرفة ما جرى، بل يتجاوز ذلك إلى الاعتاض، كما يقول سبحانه: (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُنْظُرُوا وَاعِظُوا) [الحاقة: 12]. فالتذكرة تعيد القلب إلى الحق، والأذن الواعية تحفظ ما تسمع وتفهم دلالاته [4]

والوعي بالموعظة أعمق من حفظ ألفاظها؛ فقد يسمع الإنسان أخبار الهالكين ثم يمضي في غفلته، وقد يقرأ آيات النجاة دون أن يسأل نفسه عن حاله مع الإيمان والطاعة [5] وإنما تؤتي التذكرة ثمرتها حين يظهر أثرها في السلوك والاختيار [6]

ومن هنا يصبح تدبر القصة سؤالاً يواجه به المؤمن نفسه: هل يستجيب للحق إذا سمعه؟ وهل يبادر إلى التوبة إذا أدرك خطأه؟ وهل يرى في نعم الله باباً للشكر، أم تشغله النعمة عن المنعم؟

من الطوفان إلى الحاقة

وتأتي الإشارة إلى طوفان نوح في سورة الحاقة ضمن مشاهد توقظ القلوب من الغفلة، وتذكرها بمصارع الكذابين [7] فمشهد الماء الطافي والسفينة الجارية يجمع رهبة العقاب وطمأنينة النجاة، ويهيئ النفس لتدبر ما تخبر به السورة عن اليوم الآخر [8]

ويبرز في التأمل الذي أورده سيد قطب اتصال هذه المشاهد بمقصد السورة؛ فمهما عظمت أهوال الهلاك في الدنيا، فإنها تظل محدودة أمام أهوال القيامة [9] ومن لم توقظه أخبار السابقين، فحري به أن يتفكر في اليوم الذي يقف فيه بين يدي ربه [10]

وتبقى رسالة الطوفان حاضرة لكل جيل: أن الإيمان نعمة، والنجاة رحمة، والغفلة خطر، وأن الموعظة لا تنفع من أغلق قلبه عنها [11] فطوبى لمن سمع فتدبر، وتذكر فتأب، وقابل فضل الله بالشكر، وسأله قلباً خاشعاً وأذناً واعية [12]